

تفسير ابن كثير

لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

قال : وأنزل الله - عز وجل - : (لولا كتاب من الله سبق) الآية . وقد سبق في أول

السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك . وقال الأعمش ، عن عمرو بن مرة

، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - : ما تقولون في هؤلاء الأسارى ؟ قال : فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك

وأهلك ، استبقهم واستتبعهم ، لعل الله أن يتوب عليهم . قال : وقال عمر : يا رسول الله ،

أخرجوك ، وكذبوك ، فقدمهم فاضرب أعناقهم . قال : وقال عبد الله بن رواحة : يا

رسول الله ، أنت في واد كثير الحطب ، فأضرم الوادي عليهم نارا ، ثم ألقهم فيه . [قال

: فقال العباس : قطعت رحمك] قال : فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم

يرد عليهم شيئا ، ثم قام فدخل ، فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر . وقال ناس : يأخذ بقول

عمر . وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة . ثم خرج عليهم رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد

قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم ، عليه السلام ، قال : (فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) [إبراهيم : 36] ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى ، عليه السلام ، قال : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) [المائدة : 118] ، وإن مثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام ، قال : (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) [يونس : 88] ، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام ، قال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) [نوح : 26] ، أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق . قال ابن مسعود : قلت : يا رسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء ، فإنه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إلا سهيل بن بيضاء فأنزل الله تعالى : (ما كان لني أن يكون له أسرى) إلى آخر الآية . رواه الإمام أحمد والترمذي ، من حديث أبي معاوية ، عن الأعمش ، والحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وروى الحافظ أبو بكر بن

فقداهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأُنزل الله : (ما كان لني أن يكون له أسرى

حتى يثخن في الأرض) الآية . قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وقال سفيان

الثوري ، عن هشام - هو ابن حسان - عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة ، عن علي -

رضي الله عنه - قال : جاء جبريل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر فقال : خير

أصحابك في الأسارى : إن شاءوا الفداء ، وإن شاءوا القتل على أن يقتل منهم مقبلاً مثلهم

. قالوا : الفداء ويقتل منا . رواه الترمذي ، والنسائي ، وابن حبان في صحيحه من حديث

الثوري ، به وهذا حديث غريب جداً . وقال ابن عون [عن محمد بن سيرين] عن عبيدة ،

عن علي قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أسارى يوم بدر : إن شئتم

قتلتموهم ، وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء ، واستشهد منكم بعدتهم . قال : فكان

آخر السبعين ثابت بن قيس ، قتل يوم اليمامة ، رضي الله عنه . ومنهم من روى هذا

الحديث عن عبيدة مرسلًا ، فالله أعلم . وقال محمد بن إسحاق ، عن ابن أبي نجيح ، عن

عطاء ، عن ابن عباس : (ما كان لني أن يكون له أسرى) فقراً حتى بلغ : (عذاب

عظيم) قال : غنائم بدر ، قبل أن يحلها لهم ، يقول : لولا أني لا أعذب من عصاني

حتى أتقدم إليه ، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . وكذا روى ابن أبي نجيح ، عن
مجاهد . وقال الأعمش : سبق منه ألا يعذب أحدا شهد بدرا . وروي نحوه عن سعد بن
أبي وقاص ، وسعيد بن جبير ، وعطاء . وقال شعبة ، عن أبي هاشم عن مجاهد : (لولا
كتاب من الله سبق) أي : لهم بالمغفرة ونحوه عن سفيان الثوري ، رحمه الله . وقال
علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (لولا كتاب من الله سبق) يعني : في أم
الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم ، (لمسكم فيما أخذتم) من الأسارى ()
عذاب عظيم)